الفصل الأوَّل

دراسات عن القصة الإسلامية

obeikandl.com

obeikandl.com

ملامح وشروط القصة الإسلامية

يبدو أنَّ القصة الإسلامية الحديثة أخذت تظهر بصورة أوضح بين الفنون الأدبية المختلفة، وأصبح لها كُتَّاب معروفون يتناولون هذا الفن بمقدرة واضحة، ويساهمون في ترسيخ مفهومها عن طريق إنتاجهم الأدبي في القصة أو كتاباتهم النقدية. وأيّاً كان مستوى القصة الإسلامية التي تصب في هذا السبيل، وأيّاً كان رأي الأوساط الأدبية فيها ـ فإنّها ـ ولا شك ـ ظاهرة إيجابية جيدة ستثمر ـ إن شاء الله ـ وسيكون لها أثرها في ترسيخ المفهوم الإسلامي لفن القصة ـ خاصة ـ وللأدب الإسلامي ـ بشكل عام ـ. وستكون شاهداً مهماً أمام الدارسين عن التصور الإسلام للأدب بين التصورات الأخرىٰ. والدارس الأدبي الذي يهمه تيار الأدب الإسلامي، ويهمه أن يراه وقد تميز بأصوله ومفاهيمه وأساليبه، وتميز بعطاءاته وإنتاجه، لا بد له ـ من المساهمة الجادة ـ المستمرة في تقويم هذا الإنتاج، وإبرازه، والكشف عن مميزاته لإضاءة هذه الساحة الأدبية الأصيلة أمام القارئين، ولإزاحة الأستار المصنوعة التي وضعت لحجب هذا الأدب عن المجتمعات الإسلامية.

وليس الحديث عن الأدب الإسلامي، كمفاهيم، وأُسس ونظرية، وآمال بأكثر أهمية من الحديث عن الإنتاج الأدبي، والعطاءات الفنية الأدبية المختلفة. بل يخشىٰ المهتم بالأدب الإسلامي أن تسير الدراسات النظرية والأبحاث التقليدية (الأكاديمية) بتيار الأدب الإسلامي إلى مواقع الآداب

الأُخرىٰ، والمدارس المختلفة، بكل ألوانها ومصطلحاتها، وبواعثها. حتى يُفرَّغ التيار الإسلامي، والأدب الإسلامي من روحه الحقيقية، وأصالته المتميزة، ويصبح لوناً من ألوان الآداب التي طُليت بالأصباغ لكي تضمن قبولها في المجتمعات الإسلامية، أو غُلفت بالأغلفة التي تخرجها (على الطريقة الإسلامية) مع أنَّ واقعها غير ذلك مطلقاً. ولهذا فإنَّ التركيز على تقويم الإبداع الأدبي الإسلامي، في الشعر والقصة، والمسرح، والمقالة، وغير ذلك من الألوان القديمة والحديثة هو الذي يثبت جدارة هذا الأدب، ويؤصِّل نظريته، ويحدد هويته، ويكشف عن مميزاته.

وإذا كانت الدراسات الأدبية، والأبحاث النقدية (النظرية) ضرورية (في بعض الأحيان) فإنَّ هذه الضرورة ينبغي أن تتماشىٰ مع نمو ذلك الإنتاج، واتساعه وامتداده، لتظل اللحمة قائمة، والارتباط وثيقاً بين النصوص الأدبية، والدراسات الأدبية، وحتى لا نفاجأ بالخطوط المتعارضة، والمتعاكسة وسط التيار الواحد، وحتى لا تنأىٰ هذه التيارات بنا بعيداً. لا حاجة للعجلة في الأمر، ولا خوف من الكم الهائل من الدراسات الأدبية والنظريات والمذاهب والمدارس، فكلها عند الحقيقة تعود في جذورها وأُصولها ومنابعها إلى منطلقات واحدة ـ في نظر المسلم ـ وهي بكل تعددها تقف موقفاً واحداً أمام تيار الأدب الإسلامي عندما تشعر أنَّه بدأ يحتلُّ مكانة في الحياة.

والأدب الإسلامي حقيقة واقعة، ممتدة في الماضي، وستمتد في المستقبل ـ إن شاء الله ـ لأنَّه مرتبط بوجود الإسلام وبوجود المسلم ذاته في الحياة، يقوى ويضعف، يتسع ويتضاءل مع قوة المسلم أو ضعفه، ومع امتداده أو تضاؤله، وإذا كان بروز هذا الأدب وتميزه ـ في الوقت الحاضر ـ ما زال في موضع تململ وتردد ـ أحياناً ـ فذلك مردُّه إلى أنَّ قلة قليلة من الدارسين والنقاد هم الذين يعطون هذا الأدب شيئاً من الاهتمام، وأنَّ العقود الماضية من هذا القرن أكبر شاهد على ما لقيه الأدب الإسلامي ـ والأُدباء الإسلاميين من تجاهل وكيد ونسيان، بل اشتدّت الحرب على بعضهم لأنَّهم استطلعوا أن ينفذوا من خلال السدود التي وضعوها في طريقهم. وكانت الهجمة على هذا الأدب على أشدها متمثلة من سيطرة أصحاب التيارات الفكرية العلمانية والماركسية على وسائل الإعلام والنشر (من صحافة وإذاعة ـ وتلفاز) ومؤسسات

ثقافية، وروابط ونوادٍ أدبية. وأصبحت الدراسات تتناول كل قلة شاذة، وكل فكرة إلحادية ـ أو ظاهرة غريبة فتبرزها، وتجعل أصحابها رمزاً للتحرر الفكري، والابتكار الأدبي. وفي الوقت ذاته يهاجمون كل أديب إسلامي، ويرمونه بالرجعية والسقم، وانعدام الموهبة، ويسدُّون في وجهه الأبواب. فإذا كانت صورة الأدب والنقد هكذا، فإنَّ مسؤولية الدارسين المسلمين ـ ودُعاة الأدب الإسلامي مسؤولية مضاعفة ـ فهم مسؤولون عن تصحيح الصورة المزيفة التي صنعها أتباع المذاهب الوضعية ومسؤولون عن إيضاح المعالم الحقيقية والصورة الصحيحة للأدب الإسلامي.. والكشف عن الإبداعات المختلفة. والإنتاج المعاصر للأدباء الإسلاميين.

وفي هذا الموضوع أحاول إيضاح بعض المعالم للقصة الإسلامية التي تساعد على وضوح الرؤية، وجلاء الصورة أمام كتابنا على ضوء الواقع الذي نراه في آثار القصاص من كتابنا، وعلى ضوء الأمل الذي ننشده للقصة الإسلامية الحديثة.

إذا كان القصاص المسلم لا يستطيع تجاهل العناصر الفنية التي اصطلح عليها النقاد والدارسون والأدباء لهذا الفن، فإنَّه في الوقت ذاته مدعو لأن يخوض غمار تجربته الإسلامية في القصة بحريّة وجرأة، لأنَّ هذه العناصر التي عرفها أصحاب هذا الفن ما هي إلاَّ اصطلاحات تعارف عليها الأدباء والنقاد في وقت ما، وهي أيضاً عرضة للتبدل والتغيّر والتطور، ويكفي لأي دارس أن يقارن بين نماذج من القصص الحديث، ليجد فروقاً كثيرة، في الأسلوب والطريقة ورسم الشخصيات وتصوير الحدث، فإذا كانت المقارنة بين قصص عرفت منذ عقود مضت وبين قصص معاصرة تبين الفرق الهائل، والتبدل الذي طرأ عليها خلال هذه العقود، فما الذي يدعو الأديب المسلم للجمود أمام الأطر الفنية التي تعارف عليها النقاد والأدباء لفن القصة؟ بل لننظر إلى المحاولات الحديثة في هذا الفن وغيره، ومدى التبدلات التي أرادها أصحاب المذاهب الحديثة لفن القصة، والمسرح، والشعر. فلماذا نحجر على الأديب المسلم أن يشق طريقه بحرية وجرأة؟[1] ولماذا نجعل الشروط الفنية لهذا الفن وغيره قيوداً تمنعه

---

(١) نشرت جريدة المدينة المنورة التي تصدر في المملكة العربية السعودية بملحقها «الأربعاء =

من الابتكار والتجديد، وتمنعه من الاختيار ورسم معالم الطريق بنفسه، ولشدة ما يؤلمني ما يتردد من كتابات الدارسين الذين يودون رؤية الأدب الإسلامي وقد ملأ الساحة، قلت: لشدة ما يؤلمني هذا التقييد، والانقياد الدقيق للمواصفات الفنية، والشروط الخاصة بالفنون المختلفة التي تعارف عليها الغرب.

وفي فن القصة بالذات، هناك مجال رحب لكي يخط القصاص المسلم طريقه، يخطه بثقة وثبات وأصالة، يأخذ من معين المعجزة الخالدة، ومن معين تراث النبوة الخالد، ومن معين تراث الأجداد، ومن معين التجربة الإنسانية الواسعة، ويخضع ذلك كله للتصور الإسلامي الذي يحدد الهدف، ويبدع الوسيلة المناسبة[1].

وعندها لا يهمنا الركام الضخم من الإبداعات الأخرىٰ، ما دامت في حوزتنا مواهب فنية حقيقية، وتجربة أدبية غنية، وتصور إسلامي واسع وصحيح، لا يعيش على حواف الإسلام وفي أطر شكلية فقط، أو عبر منعطفات فكرية باسم الإسلام.

ولعلَّنا إذا تناولنا عدداً من الإبداعات القصصية الحديثة لأدباء إسلاميين نرى الفرق بين نوعين من هؤلاء الأدباء:

(أ) **النوع الأول**: يضع الأطر الفنية التي تعارف عليها النقاد والدارسون،

= الأسبوعي» في ١٦ شوال ١٤٠٩ هـ الموافق ٣١ أيار مايو ١٩٨٩ مقابلة مع عزيز أباظة الأديب المصري المعروف سئل فيها عن البناء الفني للرواية فقال: «أعطني فناً جميلاً ولا شأن لك بالقواعد، والقارىء العربي يجب أن يكون على ألفة مع كاتبه، وأعتقد بأنني حطمت كثيراً من القواعد في رواياتي، وأظل متمرداً في كتاباتي، ولعلَّ هذا التمرد يشعرني بالسعادة» ص ٩ من الملحق.

(١) أذكر في هذا المجال الدراسة التي صدرت أخيراً تحت عنوان «خصائص القصة الإسلامية» للدكتور مأمون فريز جرار، وعرض فيه آراء المعارضين والمؤيدين لفن القصة عموماً ثمَّ عقد فصولاً عن (القصة في القرآن الكريم) و(القصة في الحديث الشريف) و(خصائص القصة الإسلامية).

وكذلك نذكر في هذا المجال الكتب التالية «القصص في الحديث النبوي» للدكتور محمد بن حسن الزبير. و «التصوير الفني في الحديث النبوي» للدكتور محمَّد لطفي الصباغ.

والشروط الفنية التي اتفق عليها الأُدباء هنا وهناك، يضعون هذا أساساً لأي عمل أدبي قصصي. وضمن هذه الأُطر، ومع الحرص عليها، وعلى جزئياتها يحاولون كتابة القصة الإسلامية، فيحسنون تارة ويقصِّرون تارة أُخرىٰ، وقد يسيئون أحياناً.

(ب) **والنوع الثَّاني**: يضع التصور الإسلامي الذي أراده الله عزَّ وجلّ أساساً لأي عمل، وإطاراً لكل إبداع، ومن خلاله وضمن إطاره يكتبون القصة الإسلامية. فلا يقعون في إسار التقليد الأعمىٰ، ولا يسيئون، وإنَّما تبقى مسيرتهم في الطريق الصحيح، وتزداد مواهبهم صقلاً، وتزداد تجربتهم اتساعاً ووضوحاً يوماً بعد يوم[1].

إنَّ هذا النوع هو الذي يملك قدرة الابتكار، وانتهاج السبيل المتميز للقصة الإسلامية. وهو الذي يمد هذا الفن بسماته الإسلامية، سماته الأُسلوبية، وسماته الفكرية، وكذلك هو الذي يراه خصوم الأدب الإسلامي نداً وخصماً بدأ ينمو ويكبر، ويظهر على الساحة الأدبية.

وإنَّ هذا الكلام غريب ـ حقاً ـ على بعض الناس، لأنَّهم يظنون أنَّني أجهل أو أتجاهل الفنون الأدبية بشروطها ومميزاتها، ويخشون أن يصبح الأدب الإسلامي نوعاً من أنواع العلوم الدينية.

ولكنَّ أصحاب العقائد يعلمون أنَّهم لا يكونون صادقين مع عقائدهم إلَّا بعدما تصبح في دمائهم دماً، وفي أجسادهم روحاً، وفي وجودهم حياة، وحينها يجوبون الأرض ليخضعوا كل الأمور المادية والمعنوية لمنطلقاتهم، يقبلون ما يرونه موافقاً لما يعتقدون، ويعدلون ما يرونه صالحاً لأن يكون من نتاجهم إذا عدل، ويبتكرون ويخططون ما يحقق تصوراتهم، وتنطلق مواهبهم لتبدع وتجوب آفاق الدنيا الرحبة وهل المذاهب الأدبية، والفكرية إلَّا صورة من هذا الواقع؟ فإذا كان هذا شأن العقائد الأرضية، فكيف يكون الحال بالنسبة لعقيدة الإنسانية، عقيدة التوحيد، ودين الإسلام، دين رب العالمين.

إنَّ تسليمنا بأنَّ الأدب ـ أو لبعض فنونه صورة لا دخل لعقائدنا بها أمر غريب، وخطأ فادح.

---

(١) انظر فصل «في القصة الإسلامية» في كتاب «في الأدب الإسلامي المعاصر» للمؤلف.

وإنَّ انهزامنا أمام الصور الشائعة في الفنون الأدبية لمن دواعي الحزن والأسىٰ.

ولكنَّ ذلك لن يجعل الأدب الإسلامي أسير أي إطار لا يتفق مع تصوراته، ولا يحقق الأهداف التي حددها رب العالمين لنا في الحياة.

وإنَّ الأُدباء الإسلاميين ـ الذين أصبحت العقيدة لديهم حياة حقيقية وعاشوا الإسلام واقعاً حياً متميزاً، واستعلوا على كل الصور المشوَّهة للآداب والأفكار والأوضاع، هؤلاء الأُدباء بمواهبهم، وبأصالتهم، وبجهدهم المبدع الذي يجوب العالم بحثاً عن الحق، وارتياداً لأرض لم تسمع كلمة الله بعد، وتحقيقاً لمعنى استخلافهم في الأرض، وقياماً بحق الأمانة التي ناءت الجبال عن حملها، إنَّ هؤلاء الأدباء هم الذين يستطيعون أن يخطُّوا طريق الأدب الإسلامي في الأصيل بجدارة، وبقوة، وهم الذين يستطيعون أن يستفيدوا من تجارب الإنسانية ويحولوا وسائل الآخرين إلى طريق الأدب الإسلامي، وبشروطه الصحيحة[1].

وليس من النجاح أن نتعجل الخطىٰ، في صورة لا تحقق ما يريد الإسلام، وليس من النجاح أن يكون هناك صور من الآداب تحمل في خباياها جراثيم الجاهليات المختلفة لكي نثبت أنَّنا من أصحاب هذا الفن أو ذاك، وأنَّنا على صلة بالتقدم العالمي.

* * *

آفاق القصة الإسلامية:

تمتد آفاق القصة الإسلامية إلى أبعد ما يملك الكاتب من القدرة على التفكير، والتوليد، والتخيّل، وفهم تجربة الحياة الإنسانية، ودراسة أوضاع المجتمعات، ورؤية الحقائق، واستشفاف آفاق المستقبل. ولهذا، فإنَّ آفاق القصة الإسلامية أوسع وأبعد من آفاق القصص الأخرىٰ.

---

(١) تنشر بين حين وآخر بعض القصص الإسلامية، لكُتّاب لم يشتهروا بين الناس. ولكن هذه الإبداعات لا تنال أي التفات من النقاد عامة، ومن الدارسين للأدب الإسلامي خاصة... بل بدأنا نجد كتباً كثيرة تنشر للتنظير لهذا الأدب، وكثير منها لا يعدو أن يكون صورة من صور النقد الغربي مع بعض التعديلات، انظر كتاب (في القصة الإسلامية المعاصرة).

فهي من حيث الموضوع تمتد لتشمل كل مناحي الحياة: الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعلمية، والروحية، والفنية...

وهي من حيث الاتّساع والدقة تمتد إلى دقائق الحياة النفسية، وإلى همسات النفس، ولواعجها، وعواطفها، وألوانها ثمَّ تتسع لتشمل تجارب الأجيال، ومسيرة الحياة منذ آدم وإلى يوم البعث.

وهي من حيث الشمول: تشمل كل قضايا الحياة الإنسانية على وجه الأرض في الماضي والحاضر والمستقبل، دون تفريق أو تمييز، للأبيض والأصفر والأحمر والأسود، للرجل والمرأة...

وهي من حيث الهدف: ترتقي إلى آفاق القيم السامية، والأخلاق الإسلامية الطاهرة، وإلى الدفاع عن كرامة الإنسان التي قررها خالق الوجود، وإلى التجرد، وإحقاق الحق، ونصرة الخير، وإشاعة الطهر، وحب الحياة، والمساواة.. إلخ.

وهي من حيث الوسيلة: تسلك السبيل النظيف لأنَّها تعبر عن النظرة السوية، ولا تقع في التناقض الذي وقعت به الدعوات والمذاهب الأدبية المختلفة، بين المناداة بالأهداف اللامعة، وسلوك الوسائل المخزية، وتبرير السقوط بشتى المبررات الواهية أو السيئة.

وهي من حيث الإتقان: تنشد التفوق والجمال والإحسان، لأن الله يحب من المسلم أن يتقن عمله، ويكون في سمت حسن، ومظهر جميل. ولهذا نقول: إنَّ رحابة الآفاق أمام القصة الإسلامية أوسع مدى في الزمان والمكان، والعمق من أي آفاق أخرىٰ.

وإذا كانت القصة الحديثة قد ارتادت ميادين كثيرة، وعالجت موضوعات ومشكلات متنوعة، فإنَّ القصة الإسلامية أكثر قدرة وجدارة من غيرها على ارتياد هذه الآفاق، ومعالجة هذه الموضوعات. بل إنَّ القصة الإسلامية تتميز بميزات فريدة، نابعة من التصور الإسلامي الشامل، المتوازن، المتكامل، ونابعة من شفافية الأديب المسلم وعمقه، ورحابة نظرته التي لا تنحصر في إطار المنفعة المادية في رؤيتها للأشياء والأحداث، ولا تقيدها المصلحة الوطنية الضيقة، بَلْه المصلحة الشخصية الخاصة، ولا تدفعها الضرورات الآنية، أو المؤثرات

الطارئة لأنَّ هذه النظرة ممتدة في أعماق الإنسانية منذ أن خلق الله آدم عليه السَّلام، وضاربة في مستقبل الحياة حتى تتجاوز برزخ الموت إلى حياة الآخرة، ولهذا لا تؤثر المصلحة العاجلة على الأهداف الآجلة، ولا ترى في الفرصة السانحة هدفاً لا يمكن أن تصبر عليه النفس أو يتنازل عنه الإنسان.

«إنَّ المسلم يرى الحياة على حقيقتها، يعرف أبعادها المختلفة، ومؤثراتها الكثيرة، فلا يُعْلي جانباً على جانب، ولا يميل إلى طرف دون آخر بل يطرح الموضوعات من خلال رؤيته المتكاملة الشاملة، ونظراته المعتدلة العادلة، إلى جانب ذلك الامتداد الذي يحس به المسلم للوجود والذي يتعدى الظاهر المشهود إلى عالم الغيب، وحياة الآخرة. وكذلك لا ينظر إلى الإنسان في حيِّزه الضيق المحدود بحدود الوطن أو الدولة، وإنَّما ينظر إليه في امتداده الزماني الطويل منذ أن خلق الله آدم عليه السَّلام، وإلى أن يستقر في حياة الخلود بالآخرة»[1]. فالقصّاص المسلم الذي يريد أن يرتاد طريق الأدب الإسلامي، ويحمل هذه الصفة حقيقة، هو الذي يعيش هذا التصور، وينبع منه في نظرته للأشياء، وتعامله مع المجتمع، وسلوكه في الحياة ومناقشته للمشكلات، ومعالجته للموضوعات والأوضاع. وهو بهذا يرى أنَّ مجال القصة الإسلامية أكبر بكثير من مجالات القصص الأخرىٰ التي لا تعرف طريق الإسلام. والكاتب المسلم يحس بمسؤوليته الكبيرة في الحياة، مسؤوليته أمام الله عزَّ وجلّ نحو نفسه وأسرته ووطنه ومجتمعه، والإنسانية كلها. . لذا فإنَّ نظرته واهتمامه تمتد إلى الأبعاد الإنسانية كلها، وتساير رحابة هذا الدين الذي يرسل دُعاته للناس كافّة للدخول في دين الله عزَّ وجلّ.

وآفاق القصة القصة الإسلامية عند الأديب المسلم الذي يعي مسؤوليته ويعرف عقيدته، ويعيش حياته الإسلامية بكل ما فيها من غربة ومكابدة، إنَّ آفاق القصة عند هذا الأديب الواعي لمهمته في الحياة آفاق واسعة رحبة. ولذا فإنَّه يجد مجال القصة الإسلامية أكبر بكثير من مجالات القصة الحديثة التي لا يعرف أصحابها الإسلام إلَّا بالاسم. ولكن فهم هذه المهمة من الأديب يحتاج إلى فهم إسلامه أولاً، فهماً حقيقياً متكاملاً، والعيش في ظلاله، والمكابدة من

---

(١) انظر مقدمة «في ظلال القرآن» ج ١ للشهيد سيد قطب رحمه الله.

أجل الظفر بمرضاة الله عزَّ وجلّ ومن العجيب أن نرى أصحاب المذاهب الأخرىٰ قد كتبوا أفضل إبداعاتهم عندما تمثلوا فكرتهم وانطلقوا من مفاهيمهم ومعتقداتهم، وعاشوها في نشاطاتهم، فأصبحت لديهم موضوعات حية ينظرون إليها برؤية جديدة.. ويستشهد الدكتور نجيب الكيلاني على ذلك بمكسيم غوركي الذي برع في الدعوة إلى مذهبه بأسلوب قصة مكتملة الأداء مثيرة إلى أبعد حدود الإثارة، شيّقة بصورة كبيرة ثمَّ تساءل: لماذا لا يكون للعاملين في حقل الدعوة الإسلامية مثل هذه الأدوات الفعالة؟ ولماذا لم يتنبه القائمون منهم على أمور التربية والتوجيه والتخطيط لبزوغ أدب جديد يترجم عن الإسلام، وقلب المسلم، وفكره، وهمومه وآماله وطموحاته[1].

فإذا أصبح الأديب المسلم في المنزلة التي يتحرّق فيها شوقاً لمرضاة الله عزَّ وجلّ، وتألّقاً لحمل الخير إلى الناس، واطمئناناً إلى موعود الله، وثقة بما عند الله، وحباً لمنح العالم النور الذي أفاضه الله عليه بهذا الدين. عندها يستطيع أن يرى في كل زاوية موضوعاً، وأن يصوغ ما يريده في صور أدبية جيدة..

إنَّ القصة التي ترتقي إلى المجال الإنساني في هذا العصر تنال من التقدير قدراً يجعلها في مصاف الآثار المشهورة في العالم كله، وتُعطىٰ من جوائز التقدير ما يفتح لها آفاق الأرض ليقرأها الناس.

فإذا كان الأدباء الآخرون يطرقون جانباً إنسانياً فينالون هذا التقدير، رغم ما يشوب قصصهم من العصبيات والأنانيات، والفلسفات الوضعية المحدودة، فما بالك بمن تكون رسالته للعالم كله، رسالة محبة وخير، رسالة تحرر وحرية، رسالة عدالة وارتقاء رسالة الإنسانية المكرمة، والحرية الحقيقية، والحقيقة الطاهرة.

لا شك إنَّ القصة الإسلامية التي يستطيع كاتبها أن يفهم دينه حقاً ويفهم رسالته للعالم سوف ترتقي إلى الآفاق العليا في دنياوات الأدب والإبداع.. لأنَّها القصة الإنسانية الصادقة التي تعالج قضايا الإنسان بتجرد وعدل، ونفهم مشاعر الإنسان بوعي وصدق وتعبر عن أشواق الإنسان وطموحاته بواقعية ودقة.

---

(١) «رحلتي مع الأدب الإسلامي» للدكتور نجيب الكيلاني ص ٣٣.

والقصة الإسلامية هي التي يمكن أن تعالج كل القضايا، وفي كل زوايا الأرض، وتطرح كل المشكلات، وتتحدث عن شتى الموضوعات في مختلف المجتمعات، دون أن تفقد توازنها، ودون أن تقع في التعصب، وردود الأفعال والانحرافات.

والقصة الإسلامية لا يمكن أن تقيد هذا الفن بموضوعات محددة، كما يظن بعض الدارسين، أو بأفكار محددة، فإطارها إطار الإنسانية وحدودها حدود هذا الدين الشامل الواسع وبين الإنسانية، ومجالاتها مجالات الخلق أجمعين، وعالمها عالم الحياة الرحب في أرجاء الأرض كلها.

ويخرج من هذا أيضاً، ما يخشاه بعض الدارسين من أن تكون القصة الإسلامية صورة من صور الوعظ والإرشاد، أو الخطب المنبرية، أو الروايات التاريخية التي تكتب للتسلية والإمتاع.

فإذا كانت غاية القصة الإسلامية تلتقي مع غايات الأدب الإسلامي، والعلوم الإسلامية المختلفة، فإنّ ذلك لا يدعوها للوقوع في التكرار والتشابه، ولا يمكن أن تحل ـ كأسلوب ـ محل الوعظ، أو الخطب المنبرية، أو الحدث التاريخي، أو غير ذلك، بل تبقى لها سماتها وأسلوبها وملامحها كفن من الفنون الأدبية، وتتآزر مع بقية الوسائل والأساليب الأخرى لتحقيق الغايات السامية للمسلم، ولا يغض ذلك من أسلوب الوعظ، ولا يسيء إلى الخطب كفن عظيم، وقد تستفيد منهما، أو تستعير بعض الصور منها دون أن تتحول إلى صورة مكررة منهما.

موضوعات القصة الإسلامية:

إنَّ المضمون الذي أتصوره للقصة الإسلامية ينبغي أن يقوم على أساس واضح لا لبس فيه وهو الإسلام، لأنَّه ليس هناك أمر خارج نطاق الإسلام في الحياة، ما دام هذا الأمر من شؤون الإنسان، والحياة الإنسانية. ولكن هذا الأساس يحتاج إلى كثير من الفهم والإدراك في نطاق الأدب الإسلامي وفي إدراك الأديب المسلم. فالإسلام ليس ثقافة فكرية، ولا نظرية في المعرفة أو السلوك، ولا برنامجاً محلياً، ولا فلسفة إنسانية، إنَّما هو منهج متكامل، ودستور شامل للإنسانية من رب الناس عزَّ وجلّ، يبدأ من النطق بالشهادتين، بل من

لحظة الولادة والأذان في أُذن المولود، ويشمل بعدها كل شيء، إنَّه معرفة وإدراك وسلوك ومبادىء. إنَّه شريعة وعقيدة وأسلوب، إنَّه صبغة الله الإنسانية المهتدية.

من هنا نرىٰ أنَّ من واجب الأديب المسلم أن يفهم منهج الإسلام فهماً واعياً، وشاملاً بتكافىء، يغطي المساحات التي يفكر فيها في إطار موهبته القصصية، ويمده بالرؤية الواضحة للحياة حوله.

ولا يكفي الكاتب أن يظل على ما ناله من معلومات بسيطة خلال دراسته المدرسية، أو ما سمعه أو قرأه. إنَّه يحمل مسؤولية الدعوة والفكرة من خلال موهبته، فكيف يطرح قضاياه، أو يصور الأحداث أو ينظر إلى الأُمور إن لم يكن عارفاً لدينه في هذه الجوانب وتلك، وما لم يكن تصوره واضحاً كوضوح الإسلام ذاته. الماركسي أو الوجودي يسلط الأضواء في الحوادث على الجوانب التي يراها تخدم فكرته، ويبرز الأحداث التي تؤدِّي في النهاية إلى خدمة القيم التي يؤمن بها من خلال الفن الذي يمارسه.

وكذلك فإنَّ المسلم أجدر بأن يمتلك القدرة الفنية، والرؤية الإسلامية الواضحة التي تجعله يعرف كيف يختار موضوعاته، وكيف يُبرز أحداث القصة، وكيف يخدم القيم العليا للإنسانية التي يحرص ويسعىٰ إليها دينه.

وموضوعات القصة الإسلامية كثيرة.. لأنَّها تؤخذ من الحياة ذاتها من حياة الإنسان الفرد المرأة والرجل، من حياة الطفولة والشباب، من حياة الشيخوخة، من الأسرة والمجتمع، من التفاعلات بين أطراف المجتمع.. من مواجهة الإنسان لقضايا العصر وتطوراته، من الصراع الدائم بين الحق والباطل على كافة الأصعدة وفي مختلف الأمور من قضايا المجتمع الكبيرة ومشكلات الإنسان المتعلقة بحريته وكفايته وسلامته وأمنه..

من كفاح الشعوب ضد ظالميها من المستبدين والمستعمرين والظالمين، من رحلة الإنسان، لاكتشاف نواميس الكون، والصعود في مجال الاختراعات والاكتشافات والمغامرات.

من تجارب الأُمم والشعوب والأفراد عبر التاريخ، إلخ..
من عالم الإنسان وعالم الحيوان، من الطبيعة وعلاقة الإنسان بها، وآثار

تعبه فيها.. إلى آخر الموضوعات التي لا تنتهي.

وفي كل موضوع، وفي كل زاوية، وفي كل صورة يرى الكاتب المسلم ما يصلح لأن يكون موضوعاً لقصة أو مسرحية أو مقالة... لأنَّه يواجه الحياة كل الحياة، والإسلام روح الحياة، ومنهج البشرية.

وفي كل موضوع وكل صورة، تُطرح المفاهيم والأفكار بالطريقة التي تتناسب مع هذا الفن.. وبالأسلوب الذي تعنيه الآية القرآنية ﴿**ادع إلى سبيل ربِّك بالحكمة والموعظة الحسنة**﴾ فالحكمة أن يعرف الكاتب كيف يعرض موضوعه، ويصل إلى هدفه، ويستميل قارئه، بل يستولي على قلبه ولبه ليصل به إلى شاطىء السلام، وإلى منهج الإسلام وحياة الإسلام. والحكمة أن يمتلك ناصية الفن، والقدرة على استخدامه بصورة مؤثرة صحيحة، مستهدياً بكتاب الله وسنَّة رسوله.

والحكمة أن يكون واعياً لما يقول ويصوّر، وواضحاً لما يهدف ويريد، وفاهماً ومدركاً للتصور الإسلامي في الموضوع الذي يختاره لقصته. ومن الموعظة الحسنة أن يختار الأسلوب المناسب، والطريقة المناسبة، وأن لا يعتسف الطريق، ويتعجل الخطى، ويرتكب الخطأ في الوصول إلى الهدف، فينفر القارىء، ويبتعد السامع، وتُسد في وجهه البصائر.

وإذا كانت موضوعات القصة الإسلامية بهذا الشمول فإنَّه يمكننا أن نقسم هذه الموضوعات إلى عدة محاور:

١ ـ **القصة التاريخية**: وهي التي تأخذ موضوعاتها من التاريخ القديم أو الحديث، التاريخ الإسلامي أو تاريخ العالم، ما دام الكاتب واعياً للتصور الإسلامي.

ومع هذا فإنَّ الكاتب يحتاج إلى فهم النظرة الإسلامية للتاريخ، والمسيرة الإسلامية للتاريخ، ولا بد له من أن يفقه التفسير الإسلامي للتاريخ، لأنَّ كتابة التاريخ وتحليله في هذا العصر خاضعان للمدارس الفكرية والفلسفية المادية العلمانية، ولذلك جاءت الحوادث والتعليقات متناسبة مع هذه المدارس والفلسفات. وفهم التاريخ الإنساني يستند إلى ما رواه لنا القرآن الكريم عن

الأُمم السابقة، وما أشار إليه من تفسيرات ومسببات ونتائج، وكذلك يستند إلى ما ورد في الأحاديث والأخبار الصحيحة.

وربما يتساءل القارىء: وما علاقة كاتب القصة بالتاريخ وتفسيراته ومسيرته؟

والجواب هو أنَّ التاريخ صورة من صور الحياة البشرية، يحمل تجارب الأجيال والأُمم السابقة، ويحمل تصوراتها، والسنن التي جرت على هذه العصور هي سنن الله عزَّ وجلّ، وهي جزء من التصور الإسلامي للحياة، ولهذا لا بد للكاتب المسلم من فقه ذلك، حتى يستطيع التعرف إلى الحقائق، وفهم النتائج، والربط بين الأسباب والنتائج.

وكذلك لا بد له من معرفة تاريخ الدعوات.. ولاسيَّما تاريخ الدعوة الإسلامية منذ انبلاج النور وتنزّل الآيات على محمَّد ﷺ إلى اليوم، ولا بد من دراسة هذا التاريخ أو الفترات التي يريد الكتابة عنها، أو الفترات التي تحيط بالأحداث التي تتألف منها القصة ليكون على وعي تام، وإحاطة شاملة بالموضوع. ليستطيع اختيار الحوادث وترتيبها بالشكل الذي يخدم هدف القصة، ضمن إطار الحقائق الثابتة. بل إنَّ الكاتب المسلم يحتاج إلى دراسة تاريخه دراسة تختلف عن دراسة الآخرين، وعن الدراسة المدرسية، ولاسيَّما أنَّ الدراسة المدرسية تنصَّب على استعراض الأحداث السياسية وما يحيط بها، ودراسة الأحداث المتعلقة بالحكام وما يتعلق بهم، ولكن تاريخ الإسلام ليس تاريخ السياسة والحكام فحسب، وإن كان ذلك جزء من هذا التاريخ، وإنما هو تاريخ الدعوة، وتاريخ المجتمع الذي حمل هذه الدعوة، وظلَّ يحملها إلى اليوم وإلى أن تقوم الساعة. وعندما يعرف الكاتب ذلك، تنفتح أمامه مجالات جديدة، وموضوعات كثيرة، ويستطيع أن يجد في تاريخ العلماء والقضاة والأُدباء والحكام، وتاريخ الزهاد والفاتحين، وتاريخ الحروب والمجتمع وأخبار الناس: عامتهم وخاصتهم، ويستطيع أن يظفر من هذا كله بموضوعات خصبة جيدة تبسط الحقائق، وتمتع القارىء ممَّا لم يكن في حسبانه، من خلال تصور إسلامي صحيح.

وإذا كانت حوادث التاريخ القديم عند الغربيين بما فيها من خيالات وظنون أصبحت مجالاً شيِّقاً لكتابة الروايات التاريخية، فإنَّ في تاريخنا بما

احتوىٰ من أحداث هامة، وتحولات جذرية للتاريخ البشري، إنَّ في ذلك موضوعات كثيرة تصلح لأن تتناولها مواهب القصاصين وتخرجها في أعمال أدبية جيدة.

وإنَّ القصة التاريخية في الأدب العربي الحديث تفتقد تلك الدراسة الواعية لتاريخنا، وتفتقد النظرة العميقة الواعية، والبحث الدقيق في ثنايا التاريخ للتعرف على الجوانب والموضوعات والشخصيات والنماذج الإنسانية الصالحة لكتابة القصة.

ولقد حاول أعداء الإسلام استغلال التاريخ للدس والافتراء وإثارة الشكوك، والطعن بأجمل حقبة تاريخية للعرب والمسلمين فراحوا يبحثون عن الفترات الحرجة، وحوادث الفتن، والاضطرابات لاختيار ما يجدون فيه منفذاً للطعن والتشويه.. ولقد كان جورجي زيدان نموذجاً لهؤلاء حيث حاول تشويه الحقائق، وإثارة الشبهات حول تاريخنا، وأجدادنا وفتوحاتنا، فكتب تسع عشرة قصة تحت اسم «روايات التاريخ الإسلامي» وملأها بالدسائس والافتراءات الخبيثة، وحاول تشويه أبطال الفتوح، وقادة الأُمَّة من طريق ربط حياتهم بالعواطف والأحقاد، والتعصب إلخ.. ولكن إزاء ذلك لم نجد من الكُتّاب الإسلاميين من نهض لسد هذه الثغرة، أو الكشف عن الزيف، أو تقديم الصورة الحقيقية لهذه الفترات التاريخية، ولذلك ظلَّ المتشككون يحاولون إثارة الشبهات، وتناول الموضوعات التي تتفق مع أفكارهم وعقائدهم، أو انتقاء الشخصيات التي دارت حولها الخصومات والجدل لينفذوا من خلالها إلى إعطاء صورة كريهة منفرة للمجتمع الإسلامي. أو لإبراز النعرات الطائفية، وإحياء قضايا الخلاف والجدل التي أثارها المرجفون والدساسون والمنافقون في المجتمع، أو الترويج للأفكار القومية، والعصبيات القبلية، والإباحية، والتمرد على الله عزَّ وجلّ.

هذا كله كان في غيبة الأدب الإسلامي، بَلْه المؤرخين والباحثين عن هذا الميدان، وكان في القصور الواضح للأدب الإسلامي من استيعاب هذا التاريخ ودرسه بموضوعية، ضمن مسيرة الدعوة لإبراز صوره وأبطاله، وحركة التغيير الشاملة التي أحدثها في كثير من المجتمعات، فلا عجب إذا رأينا جورجي

زيدان وتلامذته وأمثاله[1] ينقّبون في التاريخ ليأخذوا بعض الصور المشوّهة ويجعلوها مثالاً لتاريخنا العظيم.

٢ ـ القصة الاجتماعية:

المجتمعات المعاصرة بمال رحب لرحلة الأدب الإسلامي، واستنبات الثمار الطيبة فيه، مجتمعات أرهقتها الفلسفات الوضعية والحضارة المادية، مجتمعات أصبح الإنسان فيها رقماً لا قيمة له إزاء الآلة، وإحصائيات النمو، والخطط الاقتصادية ونسب زيادة الإنتاج والأرباح، وعمليات الحاسب الآلي الخيالية. الإنسان العادي، أصبح يلهث ظامئاً، متعباً، خائفاً حائراً لا يدري إلى أي شيء سينتهي به المطاف من هذه الحضارة العرجاء.

الخوف والأمراض المستعصية، والتوتر النفسي، والقلق الدائم واللهاث المرعوب.. كل ذلك من سمات العصر.

المادة... المادة... تتكدس كناطحات سحاب، وتسافر عبر الفضاء في رحلات الاستكشاف البارعة، و.. و.. ويظل الإنسان يموت بالآلاف لأنَّه لا يجد القوت. الإنسان يتضاءل، إلاَّ تلك القلة التي تقبع كالشياطين وراء الأستار تدير الآلات، وتضغط الأزرار لتنطلق المركبات الهائلة والصواريخ المدمرة، وتطبع ملايين الأفلام التي تسوق الأجيال إلى الطريق الذي ترسمه، وتخطط وتبرمج.. ولا حول للإنسان العادي ولا قوة وصرخاته أصبحت في فضاء واسع ضائع، أو وسط ضجيج الآلات الضخمة التي لا تتوقف ولا تحس، ما دامت نابعة لأباطرة العالم الحديث، أو النظام العالمي الحديث.

المرأة... السلعة... الأطفال أعداد جديدة تنزع من حضن الأُمهات لإعدادها كنماذج للإنسان الآلي القادم... المجتمع مليء بالموضوعات التي

---

(١) نشرت إحدى المجلات السياسية خبراً عن ترجمة عدد من القصص العربية لكُتّاب القصة المشهورين مثل: نجيب محفوظ، والطيب صالح، ويوسف إدريس، وحنّا مينه، وجورجي زيدان إلى الإنجليزية وغيرها. وإذا كان الكُتّاب الأوائل قد برزوا في هذا الفن، وكان كل واحد منهم يمثل رأياً واتجاهاً في أدبه، فإنَّ ترجمة روايات جورجي زيدان إلى اللغات المختلفة توضح طبيعة الحرب الفكرية والثقافية المعلنة على الإسلام، والتي يتحالف فيها أعداء من الخارج وأذناب من الداخل في مجالات الفكر والفن والإعلام والأدب.

تنتظر القصاص الموهوب وتنتظر الدارس الواعي، والأديب الحاذق، والعالم المتفهم لكي توقظ البشرية ممَّا هي فيه.

لا صوت أنقىٰ من صوت المسلم ولاسيَّما في هذا العصر. ولا نداء يجد له صدى كنداء المسلم في هذه الاضطرابات والأزمات الخانقة في هذا العالم.

العلم أصبح رعباً مخيفاً، وأحلاماً مزعجة.. أصبح فيروساً مستعصياً، أو سحابة من سحابات الأشعة الذرية التي تخترق أعماق التراب والبحار، وذرات الهواء، ومسامات الجلد، وتتسرب مع نسغ الحياة حتى تتحول إلى سموم قاتلة أو مشوهة.. والاقتصاد ذاك اليهودي الجشع الذي يلفّ حول العالم كله القيود، ويضع في طرقه المتفجرات، ويمتص دماء الشعوب وهو يتضخم ويتضخم ما دام يخضع لقانون الربا، ذاك القانون الشيطاني الخبيث، ليغتال الخيرات، ويقضي على آمال الشعوب.

مشكلات المجتمع على مستوىٰ الفرد البسيط، وعلى مستوىٰ الرجل العامل والفلاح، وعلى مستوىٰ الطالب الحائر، والطفل والمرأة.

على مستوىٰ الأُسرة والمجتمع الكبير.. هذه المشكلات كثيرة، والقصاص الموهوب هو الذي يستطيع أن يختار ويفهم ببصيرة إسلامية واعية، ويتعرف من خلال تصوره الإسلامي إلى الموضوعات التي يعيشها الناس.

ومع أنَّ هناك عدد من القصص الإسلامية التي تندرج تحت هذا النوع، ولكنها ما زالت دون المستوىٰ الذي نأمله، فبعضها يملؤه الغبش في الرؤية والتصور، والتشتت في الفكر، وعدم الوضوح في الهدف والشخصية.

وبعضه لا يزال يحتاج إلى الأداة الفنية الجيدة المتمكِّنة التي تحيل الموضوع إلى قصة أدبية مؤثرة.

٣ ـ القصة السياسية:

هذا لون حديث من ألوان القصة، ولكنه جدير بالاهتمام لأنَّه يؤثر أضعاف ما تؤثره التظاهرات السياسية، والبيانات والمؤتمرات... إنَّه كالماء الهادىء الذي يتسرب هنا وهناك فيبلل الأرض، ويفتت الصخر، ويحفر الأخاديد، حتى ينهار البناء الضخم، ويتفتت الصخر الصلد، وتتفطر الأرض فتخرج ما في باطنها من أشياء.

وربما كانت هذه القصة من النوع الرمزي، أو المذكرات أو أي نوع آخر، يطرح قضايا السياسة عبر أحداث وشخصيات وحوار ناجح. ولا يقدر على ذلك إلاّ كاتب موهوب، متمكن من فنه، ومدرك لخفايا السياسة يقرأ ما بين السطور، وما خلف الأحداث، ولديه من الحواس ما يمكنه من تفسير الظواهر تفسيراً صحيحاً.

وهناك قصص عالمية رائعة من حيث البناء والفن وإن كانت تمثل وجهة نظر غربية. وبعضها كتب بطريقة رمزية على ألسنة الحيوانات.. ولدينا في الأدب الإسلامي بعض البدايات الجيدة التي نرجو أن تقوىٰ وتزداد.

٤ ـ وهناك أنواع أُخرىٰ للقصة ومنها القصص الخاصة بالأطفال، وهي تحتاج إلى بحث خاص، لأنَّ عالم الأطفال يختلف عن عالم الكبار، وينبغي أن يعطى من الأهمية ما يجعل أطفالنا في منأىً عن تأثيرات الآخرين التي تريد لهم الانحراف والدمار[1].

واقع القصة الإسلامية وسلبياتها

بعد أن تحدَّثنا عن آفاق القصة، وموضوعاتها وأنواعها، نتوقف عند بعض الظواهر السلبية لواقع القصة الإسلامية المعاصرة، وهي تتلخص في أمور أبرزها ما يلي:

١ ـ الاهتمام بالجانب المادي اهتماماً يزيد عن الحد المعقول، الذي يحقق التوازن. والتركيز على هذا الجانب حتى يغدو وكأنَّه الأهم، إن لم يكن الجانب الوحيد، مع إغفال بقية الجوانب أو تضاؤلها، حتى تبدو حركة المجتمع والفكر، وتطورات السياسة، وتغيّر الأخلاق وكأنَّها انعكاس للجوانب المادية، إنَّ هذا التركيز نوع من الخلل في تحقيق التصور الإسلامي المتوازن، الذي يضع المادة في موضعها الحقيقي.

وإذا كان العلمانيون ـ على مختلف فلسفاتهم ومدارسهم الفكرية ـ يؤمنون بهذا، ويكرسونه في أدبهم وفكرهم، فإنَّ المسلم مدعو للوعي وإصلاح

---

(١) انظر كتاب (أدب الطفل، تربية ومسؤولية) للمؤلف ص ١٤٨، ط ١.

الخلل، لأنَّه من خلال تصوره الإسلامي، ينظر إلى الأُمور نظرة شاملة ومتوازنة، وعادلة، ولا تخفىٰ عليه المظاهر واللافتات، بل ينفذ من خلال ذلك إلى حقائق الأُمور ولبها، وخفاياها ببصر وبصيرة.

ولعلَّ الاطّلاع الكبير على الأدب الغربي، والأدب العربي العلماني ومعايشتهما في مجال القصة، مع نظرة الإعجاب والتأثر هي التي تركت هذا التأثير عند بعض أُدبائنا، دون تنبُّه له.

وساعد على ذلك أيضاً عدم وضوح الإسلام منهجاً وشريعة في أذهان بعض الأُدباء، وفي حياتهم، والاكتفاء منه بالعموميات والقضايا الفكرية. مع ضعف تجربتهم الإسلامية أو سطحيتها، يساعد على بروز مثل هذه السلبية.

والأديب المسلم رائد من رواد البشرية[1]، فكيف يقبل أن يحتل هذه المكانة بلا سلاح ولا تجربة.

إنَّه يمثل قطبين مهمين: الإسلام، والأدب. فالإسلام يحتاج منه أن يعرفه من أُصوله، ويعيشه واقعاً، ومنهجاً حياتياً وسلوكاً، ودراسة، وتجربة ومصيراً.

والأدب يحتاج منه الموهبة والدربة وامتلاك الأداة الفنية المناسبة لفنه وأدبه.

---

(١) يكرر بعض الكُتّاب كلمة الوعظ، والخطب المنبرية بشكل يخيف القارىء وبطريقة توحي بأنَّها أساليب غير مقبولة، بل محجوجة. ومع اقتناعنا بأنَّ للقصة طريقتها، وللخطبة المنبرية طريقتها، فإنَّ التخويف من أُسلوب الوعظ والخطبة غير مقبول عند المسلم، لأنَّ أعداء الإسلام يصمون الوعظ والخطب المنبرية بالسوء، لأنَّهم يحاربون الإسلام. ويعلمون أنَّ الخطبة المنبرية صنعت أحداثاً وربَّت أجيالاً، وسيرت جيوشاً. وأنَّ أُسلوب الوعظ أُسلوب إسلامي أبكىٰ وأدمىٰ، ورقَّق القلوب، وليّن الأكبد، وحوَّل المشاعر، وغيَّر الأفكار، ولذلك ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة توضح أُسلوب الموعظة ﴿**فمن جاءه موعظة من ربه فانتهىٰ فله ما سلف**﴾ (سورة البقرة، الآية: ٢٧٥).. ﴿**هذا بيان للناس وهدىً وموعظة للمتقين**﴾ (سورة آل عمران، الآية: ١٣٨).. ﴿**وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة**﴾ (سورة الأعراف، الآية: ١٤٥).. ﴿**يَا أَيُّها النَّاس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور**﴾ (سورة يونس، الآية: ٥٧).. ﴿**وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرىٰ للمتّقين**﴾ (سورة هود، الآية: ١٢٠).. ﴿**ادع إلىٰ سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**﴾ (سورة النحل، الآية: ١٢٥).. وآيات كثيرة.

فإذا أُسيء استعمال الموعظة، أو استخدمت في غير موضعها فلا يعني ذلك نبذها، والإشارة إليها بالنفور.. ولعلَّ هذا الذي يقع به بعض الإسلاميين نتيجة من نتائج التأثر بالغزو الثقافي، وأخذ مفاهيمهم دون تمحيص، والسير على منوالهم باسم التطور والانفتاح.

والكثيرون ينسون هذه الثنائية، ويبحثون عن شروط الفن وحدها، فإذا بهم يغدون ملونين بألوان شتى، صورهم رقع مختلفة، وأصباغهم متعددة المنازع، ولا يعفيهم من ذلك رفع راية الإسلام، فيسيئون من حيث يريدون الإحسان.

٢ ـ إبراز قضايا الجنس، أو ربط الأحداث بها، أو جعلها ـ كالتوابل ـ في القصة لتشدّ القارىء، وتشوّقه لمتابعة الأحداث، كما يقول بعضهم الغربيون، والماديون استغلوا الجنس في كل شيء في المعامل، والحانات والوظيفة والتعليم والسياسة والاقتصاد، ولهم فلسفة وغايات أضحت معروفة، لأنَّهم لا يؤمنون بالحساب والآخرة.

وكانوا يريدون ـ قبل كل شيء ـ مخاطبة الشباب والمراهقين لأنَّهم الأجيال القادمة المجددة، هي المستقبل.. ولذلك يريدون أن يمسكوا دوماً بخيوط المستقبل عن طريق الإغراء والإثارة.

المسلم غير هذا.. أهدافه وتصوراته تقوم على ربط الأُمور بخالق الخلق، مع تكريم الإنسان، واحترام المرأة، ووضع الغاية العامة قبل المصلحة الخاصة، والحرص على مرضاة الله والتزام شرعه المسلم، والإسلام لا ينكر العواطف، ولا يكبت الرجل أو المرأة ولكنه لا يبتزّ أحداً. ولا يسعىٰ لمصلحة فئة أو طبقة، وإنَّما يسعىٰ لمصلحة الإنسانية كلها، واتباع الحق.

ولذلك لا يستخدم العواطف والجنس حِلية، بل يعالج هذه القضايا باعتدال، ينظر إليها نظرة واقعية كريمة ولا تهمة الضلالات والعادات التي أصبحت قانوناً في نظر الفنون الغربية، ولهذا فمن الخير، ومن الحق أن يتنبّه إليها الكاتب المسلم، فلا يساير العادات، ولا ينأى عن دنيا الإسلام.

٣ ـ شخصية الإنسان المتدين، وإبرازها بصورة سلبية أو مشوهة.

لقد دأب كُتّاب القصة على إبراز الشخصيةْ المسلمة بطريقة مشوهة، فبدلاً من إبراز العالم التقي الصالح، يصورون من يسمونه «رجل الدين» طبقاً للتصورات الغربية الصليبية فهو رجل مهمته كهنوتية، صاحب طقوس، وله سمات معينة لا علاقة له بالحياة، له ظاهر يختلف عن الحقيقة التي يخفيها أو يصور إمام المسجد الذي يعظ الناس، ثمَّ يبتزهم ويستغل البسطاء، ويتصرف تصرفات ماكرة.

وكذلك خطيب المسجد، والمأذون الشرعي، والقاضي الشرعي وغيرهم. وهذا واضح في أكثر القصص والمسرحيات، وقلّما يبرزون صورة العالم الصالح التقي العامل، الداعية، المصلح، الذي يحب الخير للناس، ويبذل النصح لهم، ويعمل على خدمتهم ويُسهم في إصلاح المجتمع ومعالجة الأمور كلها بإخلاص وصدق وعفّة.

ولا يبرزون الشاب الداعية، والمدرّس المتدين، والقاضي الصالح الذي يخشىٰ الله عزَّ وجلّ، ولا يحكم إلاَّ بالعدل.

ولم يسلم الكاتب المسلم من هذه الصور المشوهة، ظناً منه أنَّه يسهم في نقد الصورة المنحرفة بغية الوصول إلى الأصلح، ولكنَّ الحقيقة أنَّ هذا الأمر أصبح خطراً، لأنَّه يُستغل من أعداء الإسلام، لتشويه حقيقة الإسلام، وطعن مبادئه عن طريق تحطيم المثل والقدوة، ونزعها من أذهان الأجيال وتغييبها عن أنظار الناس.

٤ ـ تصوير بعض الوقائع بطريقة معكوسة:

ومثال ذلك قضية المرأة التي عانت من بعض الظلم نتيجة الجهل أولاً، وابتعاد الناس عن فهم دينهم وتحكيم شريعة الله في حياتهم، ممَّا جعل الرجال يتمسكون بعادات وتقاليد ليست من الا سلام، بل كثير منها تخالف شرع الله.

ولكن الخبثاء... أصحاب المذاهب الفكرية العلمانية يتَّخذون من هذا الدافع وسيلة لإثارة مشكلة جديدة، فيظهرون أنَّ المرأة مظلومة ومهانة، وقد سُلبت حقوقها، وانتزعت حريتها، وأنَّ ظالمها هو الرجل، بدلاً من تحديد الأسباب الحقيقية التي جعلت الرجل والمرأة مظلومين وظالمين لأنَّهما تركا الاحتكام إلى شرع الله، وبذلك يثيرون قضيةً خيالية ثمَّ يمعنون في إثارته عواطف المرأة وحنقها ضد الرجال، ويصورون لها حقوقاً مسلوبة، ويتخذون من بعض الأوضاع الخاطئة مبرراً لذلك، ثمَّ يخرجونها عن طبيعتها وأنوثتها، ويسلبونها أعزّ ما لديها، وأجمل صفاتها لتحقيق الاختلاط، ونزع الحياء، وإباحة الحرمات، وإثارة الغرائز، وتبرير الجرائم والسقوط. والكاتب المسلم لن يصل إلى هذا الحد، رلكنه يُسهم أحياناً في إبراز الصور المأساوية للمرأة

دون احتراز ويرجع أسباب ذلك إلى الرجل دون أن يبعد المرمى، ويكتشف ما وراء ذلك من أغراض خبيثة.

٥ ـ استخدام المصطلحات العلمانية لأنَّها درجت بين الناس وترك كثير من المصطلحات الإسلامية، مع العلم بأنَّ كل مصطلح يحمل دلالات ومفاهيم تنبع من فكرة، وكثير منها يعود إلى المعتقدات الوثنية، أو الأفكار الماركسية، أو الفلسفات الوضعية، ومن ذلك كلمات «الاشتراكية، الديموقراطية، الطبقات، الثورة، الصراع، الجماهير وغير ذلك» ومنها أيضاً بعض الرموز التي ترجع إلى الأساطير القديمة، اليونانية وغيرها، ومنها بعض العادات الاجتماعية في الاستقبال والوداع والتكريم وغيرها.

الإطار الفني للقصة:

أمَّا بالنسبة للشكل، أو الإطار الفني الذي ينبغي أن يحرص عليه كاتب القصة، فإنَّه يخضع للاجتهادات والقدرات الخاصة لكل كاتب. وفن القصة من الفنون التي خضعت لتطورات كثيرة في طريقة عرضها وأسلوبها، ورسم شخصياتها، وتناول موضوعاتها، وكانت هناك مدارس كثيرة وأساليب متنوعة، وهي خاضعة للتطوير والتحديث باستمرار، حتى وصلت إلى صور غامضة أشبه ما تكون بالأشياء المركومة بلا تجانس، ولا ترتيب.

وعلى أي حال فليس من المفيد أن نقيّد القصاص المسلم بأُطر فنية محددة، وإنَّما المفيد أن نترك له الحرية لكي يختار الأسلوب الذي يلائم المادة، والمضمون مع المحافظة على الأصالة، وإبراز الشخصية المتميزة للكاتب من خلال هذا الأسلوب[1].

وإذا كان للمسلم أن يستفيد من كل الأساليب الحديثة والقديمة ولكنه يحافظ باستمرار على الثوابت التي تدل دوماً على أصالته وصلته بهذه اللغة الماجدة، لغة العقيدة بتراكيبها ومصطلحاتها وروحها المتميزة، وإحساساتها وإيقاعها وصورها.

وإنَّ مرونة هذه اللغة وقدرتها على التوالد، سوف تعطي الكاتب المبدع

---

(١) انظر كتاب (الأدب الإسلامي أُصوله وسماته) للمؤلف، الفصل الثالث (الأدب الإسلامي مميزاته وسماته).

المجال للإبداع والابتكار ضمن الإطار العام الواسع. وينبغي أن يتذكر الكاتب أنَّ أسلوب القصة له طابعه الخاص الذي يختلف عن أسلوب المقالة أو المحاضرة أو الحديث الإذاعي. فالبساطة الموحية، والوضوح والسلاسة، مع السلامة اللغوية، وجمال العبارة ورشاقة الأسلوب، والموسيقى الناعمة، كل ذلك من الأمور التي تجعل الأسلوب ناجحاً مع المحافظة على روح الأسلوب القصصي بشكل عام.

* * *

والقصة تعتمد على الحوار كطريقة من طرق التعبير المتّبعة فيها، والحوار يحتاج إلى قدرة على تمثّل الكاتب لشخصيات القصة وملامحهم وثقافاتهم وأحلامهم، ليكون الحوار معبراً ومناسباً للشخصية. مع الحيوية والتركيز، والتعبير عن الحياة الواقعية لكل شخصية من الشخصيات.

وأيّاً كانت الطريقة أو الأسلوب، فإنَّ الكاتب المسلم يحافظ على لغته دون أن يستجيب للدعوات التي تغري الكُتّاب باستعمال العامية أو المصطلحات العامية أو الغربية بحجة واقعية الأسلوب، أو التعبير الفني الصادق عن الشخصيات العادية.

إنَّ القصة تصور هذه الشخصيات بطريقة موحية، وتعبر فنياً عنها، ولا يرسمون رسماً منقولاً أو تصويراً «آلياً، فوتوغرافياً» ولذلك لا مجال لاستعمال العامية، ولا حاجة لنقل المصطلحات الغربية.

والداعون إلى ذلك يستخدمون هذا المنزلق كمنطلق أو خطوة للوصول إلى أهدافهم وإبعاد لغة القرآن عن الناس وأفهامهم. والمسلم صاحب رسالة، ومن رسالته أن يرتفع بالذوق العام لاستخدام اللغة الفصحى، ويجر العامية للخضوع إلى قوالب الفصحى ومصطلحاتها وقواعدها والتخلّي عن شذوذها وعجمتها، والقصة والمسرحية من الفنون التي تصلح لمثل هذه المهمة.

وأمَّا بالنسبة لحبكة القصة وطرق العرض، فإنَّ الكاتب مدعو لإثبات موهبته، واختيار الطريقة الملائمة لموضوعه، ولا يختار ذلك مقلداً، وإنَّما يختار ذلك بروح المسؤولية، بعد الخوض في التجربة ومعرفة ما يناسب أدبه وموضوعه وهدفه.

وينبغي ألاَّ يغيب عن الأنظار، أنَّ هذه الطرق، والأُطر الفنية الشائعة في هذا الفن وغيره، ليست في أكثرها إلاَّ ثمار من تجارب الغربيين، وصور من أساليبهم المعبرة عن أذواقهم ومجتمعاتهم، والنابعة من فلسفاتهم، ولهذا فإنَّ الأديب المسلم الواعي، لا يأخذ هذه الأساليب إلاَّ بعد أن يتعرف عليها، وعلى طرقها، وإيحاءاتها، ومصطلحاتها، ثمَّ يخضعها لثوابته التي يؤمن بها ويستمدها من تصوره الإسلامي، وغايته في الحياة.

إنَّه يختبر هذه الأساليب ليتخير منها ـ إن وجد ـ ما كان صالحاً لحياته وأدبه، منسجماً مع عقيدته وأساليب لغته، وترك ما دون ذلك مهما قال عنه النقاد، ووصفه الدارسون.

إنَّ الأديب المسلم يحرص على إبراز أصالته التي هي جزء من ثوابت أدبه وسماته، فيأخذ ويدع ما يتماشى مع هذه الثوابت وهذه السمات.

ونعيد مرة أُخرىٰ، أنَّنا بحاجة ماسة إلى دعوة واعية لكتاب الله العزيز، هذا الكتاب المعجز في أساليبه، وفصاحته وبلاغته لنتعلم منه الكثير، لتتشكل على أساسه أذواقنا الأدبية ومعارفنا، وأساليبنا الأدبية، ونظرتنا الجمالية، حتى يصبح لنا الدم الذي يسقي كل خلايانا، ويغذِّي وجودنا، ويدفع الخبث والجراثيم التي تدخل إلى عالمنا.

إنَّنا بحاجة ماسة لدراسة القصص في القرآن الكريم، دراسة إسلامية متأنِّية، بعد أن نتحرر من مصطلحات الغربيين، لنتعرف على سمات هذا الفن العظيم، الذي استخدم القرآن في كثير من سوره وآياته. ولكي تكون لنا نبراساً هادياً في كتابة القصة الإسلامية وتنوع أساليبها، وعرض موضوعاتها، ورسم شخصياتها، وتحديد أهدافها.

وكذلك لا بد من دراسة القصة في الحديث الشريف أيضاً، للوقوف على الصور الأخّاذة التي تركها لنا رسول الله ﷺ وقد تنزَّل عليه الوحي، وعاش في ظلاله بكل كينونته.

وتراثنا التاريخي والأدبي مليء بألوان شتّىٰ من القصة ولكنها تحتاج إلى من ينقِّب عنها وينفض الغبار لتعود إلى ألقها المضيء. وإذا كان المعجبون بالغرب لا يبخلون بأحلىٰ سنوات العمر، ينفقونها لدراسة الآثار الأدبية الغربية ـ

قديمها وحديثها، ما كان ينبع من الأساطير والأوثان، أو يصور المادية والوجودية والعلمانية.

إذا كانوا كذلك، فلماذا يحجمون عن البحث والتنقيب في تراثنا عن الآثار الأدبية التي تضمها كتب التاريخ أو السيرة، أو المغازي، أو الرحلات أو التراجم، أو الرقائق أو غيرها من الكتب.

إنَّ العجب كل العجب من الكُتّاب الإسلاميين الذين لا يكلفون أنفسهم شيئاً من العناء لدراسة هذا التراث، ومعرفة مضامينه وأساليبه، والعيش معه، وتذوق جمالياته، وينفقون شطراً من العمر مع الأوثان والأساطير.

إنَّ الأديب المسلم، والناقد المسلم حريٌّ به أن ينقب في هذه الكنوز ويعود إلى المنابع الأولىٰ لتفجر عنده طاقات الإبداع، وتلهمه الأساليب المتميزة التي تصبح سمته وشخصيته، وتعطيه القدرة الواعية على استخلاص كل الخير ممَّا في الشرق أو الغرب.

obeikandl.com